

د. علي جواد الطاهر

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - سوريا: مج٤١، ج٤، ١، ١٩٦٦م


دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

يكون تركياً . ولابد من أن تعني كلمة « الأعاجم » أو « العجم »(١) التي ترد عند الحديث عنه : الترك . وانه لكذلك ، بدليل صريح ، هو قول ابن المعتز : « كان من نسل الترك »(٢) .

وكان المبرد يروي أنه « كان يرجع إلى بيت في العجم كريم »(٣) .

ويبدو أن علم الباحثين المعاصرين لنا أنه مولى ورؤيتهم كلمة « العجم » في نسبه مما دفع بهم إلى الجزم السهل بأنه فارسي الأصل ؛ ومن هؤلاء الباحثين بروكلمان وبرون وأحمد أمين ومحمد نبيه حجاب وغيرهم(٤) .

وليس لدينا ما يدل على أن إسحاق وُلد في الصغد ، وإنما لدينا قوله :

رسا بالصُّغد أصل بني أبينا   وأفرعنا بمروِ الشّاهجان
وكم بالصُّغد لي من عمٍّ صدقٍ   وخال ماجدٍ بالجُوزجان(٥)

وقد يكون الراجح — على هذا — في ولادة إسحاق أن تقع في إحدى هذه المدن الكثيرة من خراسان ؟ وأنها في مرو الشاهجان ، إن لزم التخصيص . أما تاريخ الولادة فلم يشر اليه أحد ، وقد ذُكر أن إسحاق من طبقة تلي سِنّاً طبقة بشار (وأبي نواس)(٦) .

ثم كان في سجستان ، ترعرع وشبَّ وتعلم وطلب العلم والأدب ثم قال

(١) ابن قتيبة ٢ : ٧٣١ ، ويبدو أن العباسي ١ : ٢٥٢ أخذ عنه .
(٢) ابن المعتز ٢٩٣ .
(٣) الحصري ٢ : ١٠٧١ ، ومثله ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ .
(٤) بروكلمان ٢ : ١٩ ، برون ١ : ٢٦٨ ، أحمد أمين ١ : ٦٥ ، حجاب ٣٠٥ ، الحوفي ٤٥٠ ، الشايب ٢٣٢ . وينظر محمود مصطفى ٢ : ٣٥٣ ، بيومي ٢٩٣ .
(٥) ياقوت كلمة الصغد ، وينظر ياقوت ولسترنج عن أعلام المدن الواردة في البيتين .
(٦) ابن رشيق ١ : ١٠٠ وذكر في ولادة بشار عام ٩٦ وفي قتله عام ١٦٧ أو ١٦٨ ، وفي ولادة أبي نواس ١٤١ — ١٤٥ ووفاته ١٩٦ — ٢٠٠ .

وأصبح يرى نفسه مظلوماً مغموط الحقوق لا ينال لقمة العيش بعز وكرامة :

أدركتْني ـ وذاك أوَّل دابي ـ بسجستان حرفةُ الآدابِ [١]

وأكثر ما كان يشكو أنه يُضطر إلى قصد من لا يستحق من الممدوحين ، وكرر المعنى نفسه في أبيات أخرى انتهى فيها إلى أن قال .

لا تَنْظُرَنَّ إلى عقلٍ ولا أدبٍ إن الجُدود قريباتُ الحماقاتِ [٢]

ولكنه ما زال في أول مراحل النظم لما يبلغ الدَّرجة التي تصوَّر أنه بلغها . ولا بد من أن يكون الضيق الذي عاناه أهم ما بعثه على قول الشعر ؛

ذكر الجاحظ « قال أبو يعقوب الخريمي الأعور ، أول شعر قلتُــه هذان البيتان :

بقلبي سَقامٌ لستُ أحسنُ وصفَهُ على أنه ما كان فهو شـديدُ

تمرُّ به الأيامُ تسحبُ ذيلَها فتبلى به الأيامُ وهو جديد [٣] »

ولا بد من أن يتصبَّر ، فقد تطول الأزْمة ، ولا بد من السعي ، فقد يقع على من يفرِّج عنه الكرب ويوسع له الأمل — وهذا ما كان .

(٢)

فقد وقع على « قائد جليل وسيِّد شريف [٤] » « عظيم القدر » [٥] ، عرف قدره وأغدق عليه المال وهيأ له الجاه . وكان لإسحاق من الصفات ما يجعله

---

(١) الآمدي ١ : ١٢١ . وينظر ابن عساكر ٢ : ٤٣٥ . وينظر عن سجستان ياقوت ولسترنج .

(٢) ابن عساكر ٢ : ٤٣٥ ـ ٤٣٦ . وينظر الجاحظ ـ الحيوان ١ : ٣٥٤ .

(٣) الجاحظ ـ البيان ١ : ٢٢٤ ، ٣ : ٣٢٥ . وينظر للأعور ابن الجراح ١٠٤ .

(٤) الحصري ٢ : ١٠٧٢ ، البغدادي ٦ : ٣٢٦ ، ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ .

(٥) ابن قتيبة ٢ : ٧٣٢ .

أهلاً لذلك ، فإنه إلى عمله وأدبه و « ظرفه »(١) « كان يتأله ويتدين »(٢) و « يرجع إلى إسلام ووقار »(٣) .

ذلكم « القائد » هو « عثمان بن عُمارة بن خُرَيْم الناعم الذي ينتهي نسبه إلى ذُبيان إلى غطفان من العدنانية (٤) . وكان جدُّه خريم سيّداً في قومه ، جعلته مكانته علماً لأولاده وأحفاده فقيل عمارة الخريمي ، وعثمان الخريمي ، وأبو الهيذام (عامر) الخريمي . حتى إذا كان اسحاق بن حسّان مولى لعثمان قيل له إسحاق بن حسان الخريمي ، وأبو يعقوب الخريمي أو الخريمي فقط (وكثيراً ما صحف بالخزيمي ، وقد يصحف بالخرمي أو الجرمي — ولا قيمة لذلك ولا أساس) .

مدح أبو يعقوب عثمان كثيراً وسارت أماديحه ، ولا بد من أن يكون منها اللامية التي يقول فيها :

... فلو لم يكن إلاّ بنفسك فخرها   لكان لها يوم الفخار بك الفضل(٥)

وربما كان في هذه القصيدة الأبيات التي يقول فيها :

أبِالصُّغدِ بأسٌ إذ تعيّرني جُمل ُ   سَفاهاً ومن أخلاق جارتي الجهلُ

(١) ابن قتيبة ٢ : ٧٣٢ .

(٢) ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ .

(٣) ابن عساكر ٢ : ٤٣٢ ـ كأنه يروي السند عن المبرد .

(٤) ينظر عن خريم ، ابن قتيبة ٢ : ٧٣١ ، ابن الجراح ٢٣ ، ابن حزم ٢٤٠ ، الميداني ٢ : ٣٠٥ ـ ٥٦ ، ابن عساكر ٥ : ١٢٨ ، القلقشندي ٤١٩ ، ٢٥٤ ، ٣٨٨ ، ٢٨٨ ، الزركلي ٢ : ٣٤٨ .

(٥) العسكري ـ ديوان ١ : ٧٤ ، وينظر الجاحظ ـ البخلاء ١٦٧ ، البيان ٢ : ٣٥٢ (وينظر ١ : ٢٧٤) ، الحيوان ٢ : ٩٥ (وينظر ١ : ٢٧٤) ؛ ابن قتيبة ٢ : ٧٣٥ .

فان تفخري يا ُجمْلُ أو تتجملي فلا فخرَ إلا" فوقه الدينُ والعقل
أرى الناس َشَرعاً في الحياة ولا ُيرى لقبْرٍ على قبر علاءٌ ولا فضل
وما ضرّني أنْ لم تلدني « يحابرٌ » ولم تشتملْ «جرمٌ» عليّ ولا «عُكْل»(١)

ذكر هذه الأبيات أكثر من مصدر دون أن يعلق عليها أو أن يربطها بالشعوبية ، ولكن الباحثين المعاصرين لنا ربطوها(٢) واشتدوا على الشاعر وزاد بعضهم أن نسب الربط إلى ياقوت(٣) — ولا صحة للنسب(٤) ، وما كان مناسباً أن يكون شعوبياً شاعر كأبي يعقوب وهو يمدح قائداً كعثمان الخريمي .

ظل الشاعر قريباً من عثمان يواصل المدح ويتلقى المال ويلقى الجاه(٥) . ثم كانت نهاية عثمان على غير ما يحب وهو القتل(٦) ، كما يبدو ، فرثاه(٧) .

وكان طبيعياً أن يلحق بأخيه أبي الهيذام .

وجمع أبو الهيذام بالشام جمعاً عظيما ، فقد كان « أحد فرسان العرب المذكورين » وهو زعيم قيس في الفتنة التي وقعت بينهم وبين اليمن ، وقد

---

(١) ابن قتيبة ٢ : ٧٣٥ ، ياقوت ، كلمة الصغد — واختلط على ياقوت الأمر فحسب ان الخريمي كان في عصر فيه صحابة .

(٢) احمد أمين ١ : ٦٦ ، حجاب ٣٠٥ ، وينظر الحاجري ٣٦٤ .

(٣) حجاب ٣٠٦ .

(٤) ينظر ياقوت . كلمة الصغد .

(٥) يبدو ان عثمان نزل سجستان عاملاً للرشيد بها كما يفهم من ابن الجراح ٢٣ ، والمرزباني — معجم ٢٥٦ .

(٦) ينظر المرزباني — معجم ٢٥٦ ، العباسي ١ : ٢٥١ ، ابن الجراح ٢٣ ، ابن عساكر ٧ : ١٧٦ .

(٧) دون أن يصل الينا الرثاء . وصلت أبيات تنسب لأبي الهيذام يرثي أخاه ، ينظر ابن الجراح ٢٣ ، ابن عساكر ٧ : ١٧٦ ، العباسي ١ : ٢٥١ — ٢٥٢ .

غلظ أمره واشتدت شوكته وأعيت الرشيد الحيل فيه ، وكان إلى جواره ابنه خريم — وهو فارس شاعر — وكان ذلك عام ستة وسبعين ومائة .

ولكن الرشيد استطاع أن يقضيَ على الفتنة بمهارة موسى بن يحيى بن خالد بن برمك فقد ورد الشام وأصلح بين أهلها ، ولما انتهى الخبر إلى الرشيد بمدينة السلام ردّ الحكم في « الثائرين » إلى يحيى فعفا عنهم (١) ، قال – في ذلك – الخريمي أبياتاً امتدح فيها يحيى (٢) .

ولم نعلم — بعدها — من أخبار أبي الهيذام إلاّ أنه توفي سنة اثنين وثمانين ومائة (٣) ، وقد رثاه الخريمي (٤) ، وخلفه ابنه خريم فأقام عنده الشاعر يمدحه ويمجده ، حتى إذا توفي رثاه وأكثر من رثائه (٥) فقال :

... وقالوا : ألا تبكي « خريم بن عامر » فقلت على أن كان ذلك ينفعُ
سأبكي « أبا عمرٍو » لضيف مدقَّعٍ وذي حاجة أعيي بها كيف يصنع
وكان لسانَ الحي قيسٍ ونابَها وكانت به قيسٌ تضُرُّ وتنفع (٦)

---

(١) ينظر عن أبي الهيذام عامر بن عمارة بن خريم و« ثورته » بدمشق أيام الرشيد : ابن الجراح ٢٣ – ٢٤ ، ابن قتيبة ٢ : ٧٣١ ، الطبري III ٦٢٥ (وينظر الجهشياري ٢٠٦) ابن دريد ٢٨٩ ، المرزباني – معجم ٢٥٦ ، ابن عساكر ٧ : ١٧٦ – ، العباسي ١ : ٢٥١ – ٢٥٢ ولا تخلو الروايات من اضطراب .

(٢) الأبيات لدى الطبري III ٦٢٥ سنة ١٧٦ . وربما ورد الخريمي بغداد في هذا العام . ينظر البغدادي ١٤ : ٢٩٦ ، ابن عساكر ٤٣٥ .

(٣) ابن عساكر ٧ : ١٩٣ .

(٤) ابن المعتز ٢٩٣ ، ابن الجراح ١٠٣ – ولم يصل الينا رثاؤه ، كما يبدو .

(٥) ابن عساكر ٥ : ١٢٦ – ١٢٨ .

(٦) ابن عساكر ٥ : ١٢٦ – ١٢٧ .

وقال :

... وكان لنا الخليفة من أبيه لينهض بالمهات الثقـال (١)

وقال عينيته التي تعد من بدائعه ومن خير ما قال ويقال :

قضى وطَراً منك الحبيب المودِّعُ وحلَّ الذي لا يُستطاع فيُدْفَعُ
وأصبحتُ لا أدري إذا بان صاحبي وغودرتُ فرداً بعده كيف أصنع

* * *

وقالوا : ألا تبكي خُريمَ بنَ عامرٍ فقلت : وهل يُبكى الذلولُ الموقّع
لقد وَقَذَتْني الحادثاتُ فما أرى لنازلة من ريبها أتوَجَّع
صبرتُ وكان الصبرُ خيراً مغبَّة وهل جزَع أجدى عليَّ فأجزع

* * *

ألم تَرَني أبني على اللَّيثِ بيتَهُ وأحثو عليه التربَ لا أتخشَّعُ

* * *

وكان خريمٌ من أبيه خليفةً إذا ما دجا يوم من الشرِّ أشنع

* * *

وأعددته ذُخراً لكلِّ مُلِمَّةٍ وسهمُ المنايا بالذَّخائر مولع
بقية أقمارٍ من الغُرِّ لو خبَتْ لظلَّت « معَدٌّ » في الدُّجى تتكسَّع
إذا قَمَرٌ منها تغوَّر أو خبا بدا قَمَرٌ في جانب الأفق يلمع
فلو شئتُ أن أبكي دماً لبكَيتُهُ عليه ، ولكنْ ساحةُ الصبر أوسع
وإني ـ وإن أظهرتُ صبراً وحسبة وصانعت أعدائي ـ عليك لموجع(٢)

---

(١) ابن عساكر ٥ : ١٢٧ .

(٢) ابن عساكر ٥ : ١٢٧ - ١٢٨ وينظر ٢ : ٤٣٦ .

والقصيدة من رائع الشعر وبارعه وهي تبين عظم المصاب على الشاعر ومدى الحزن الذي ساوره وقد فقد سيداً كريماً وموئلاً شريفاً فقال ما قال صادقاً .

وابن عساكر الوحيد الذي أوصل إلينا القصيدتين الأوليين في رثاء خريم بن عامر ، والوحيد الذي أوصل القصيدة الثالثة بواحد وعشرين بيتاً صريحة على أنها للخريمي في رثاء خريم .

أما الآخرون (١) فقد أوردوا البيت والأبيات ، معجبين ، ولم يرد لديهم ذكر لخريم وربما وصلت إلينا روايات بعضهم على أن القصيدة في أبي الهيذام ، ويبدو أنها جازت على هذا خلال العصور ، وليس من دليل ، ولا دليل بعد رواية ابن عساكر وورود اسم خريم صريحاً فيها .

والمهم ، أن الدنيا ضاقت بالشاعر بعد هذا الفقد الجسيم ولم تعد له الشام دار إقامة (٢) ، ولعله أقام حيناً في الجزيرة الفراتيـــة ـ في ديار مضر ـ مثلاً ، وقد قيل فيه إنه « جَزَري » (٣) وقيل « .. نزل الجزيرة والشام » (٤) ، ولا بد من التفكير ببغداد مقر الخلافة ومطمح النابهين .

---

(١) الجاحظ ـ الحيوان ٣ : ٩٤ ، ١٤٨ (وينظر ٦ : ٤٢٣) ، البيان ١ : ٤٠٦ ؛ المبرد ٢ : ١١٧٤ ، المرزباني ـ الموشح ٣٠٧ ، القاضي الجرجاني ٢٠٤ ، ٣٢٢ ، ٣٣٦ ، العسكري ـ ديوان ٢ : ١٧٥ ، المرزوقي ٣ : ١٠٥٣ ، عبد القاهر ١٢٦ ، ابن عساكر ٢ : ٤٣٦ ، النويري ٥ : ١٨١ ، العباسي ١ : ٢٤٦ ـ التبيان ٣ : ١٠ ، ٣٣٣ .

(٢) كان لأبي الهيذام عامر ولد آخر اسمه موسى ولكنه كان محدِّثاً ـ مات سنة ٢٥٥ ـ الذهبي ٤ : ٢٠٩ ، العسقلاني ـ تهذيب ١٠ : ٣٥١ ، تقريب ٥١٢ ـ ٥١٣ ، لسان ٦ : ٧٣٤ .

(٣) البغدادي ٦ : ٣٢٦ ، ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ .

(٤) البغدادي ٦ : ٣٢٦ ، ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ ـ ترى هل الخبر يعني التسلسل الزمني ؟ .

(٣)

« نزل بغداد »(١) و « سكنها »(٢) أيام الرشيد ، وبدأ يمهد لنفسه حتى كانت له مكانة ، وكان له صوت ؛ وورد في أخباره أنه « كان يمدح الخلفاء والوزراء والأشراف فيُعطى الكثير »(٣) ؛ وورد أنه اجتمع بعبد الله بن الرشيد (أي المأمون قبل خلافته) وكان عند عبد الله جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ومعه منصور النَّمري والعباس بن زفر(٤) ؛ وورد مرة أخرى أنه جالس جعفر بن يحيى والفضل بن يحيى(٥) وأنه مدح يحيى ابن خالد(٦) .

وبرز في صِلات الشاعر اسمان ، الأول : محمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة . وكان « سخياً سرياً ، وكان الرشيد يسميه فتى العسكر »(٧) ، وكان للخريمي « فيه مدائح جياد »(٨) وصلت إلينا منها سبعة أبيات رائية يعترف فيها الشاعر بالنّعم التي أولاه إياها ابن منصور(٨) . ثم مات محمد فرثاه الخريمي(٩)

---

(١) البغدادي ٦ : ٣٢٦ .
(٢) ابن عساكر ٢ : ٤٣٤ .
(٣) ابن المعتز ٢٩٣ .
(٤) الأصبهاني ١٢ : ٢٠ — ٢١ .
(٥) الجهشياري ٢٩٣ .
(٦) الصولي ١١٧ .
(٧) الجهشياري ٢٦٦ . وكان أبوه كما يروي الجهشياري ٢٢٤ — « ضيِّقاً بخيلا » .
(٨) ابن قتيبة ٢ : ٧٣٢ .
(٩) ابن الجراح ١٠٣ — ١٠٤ : « ومن قولهِ .... أنشدنيه محمد بن القاسم ، قال ، أنشدني الرياشي ... » وينظر ابن قتيبة ٢ : ٧٣٤ ، عيون ٣ : ١٦٠ ، المبرد — الفاضل ٩٥ ، الوشاء ، ٤٥ ، الجهشياري ٢٦٧ ، القاضي الجرجاني ٣٥٤ ، التبيان ٤ : ٦٥ .

والثاني : أبو علي الحسن بن التختاخ كاتب الفضل بن يحيى (١) ، وله فيه مدائح . ولما ولاه الرشيد مصر (وقد بلغها يوم الاثنين لثلاث خلون من ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين ومئة) قال بائية حسنة يتشوق بها إليه ، جاء في مطلعها :

ألا مبلغ عنّي خليلي ـ ودونَهُ ... مطا سَفَرٍ لا يطعَمُ النومَ طالبُهْ
رسالة ثاوٍ بالعراق وروحُهُ ... بفُسطاط مصرٍ حيث جمّت عجائبه
له كلّ يوم حنّةٌ بعد رنّــــةٍ ... يجيش بها في الصدر شوق يغالبه

ومنهـا :

أرى بعدَك الإخوانَ أبناء َعلـّة ... لهم نَسَبٌ في ودّهم لا أناسبُه
فهل يرجِعنْ عيشي وعيشَك مرةً ... ببغداد دهرٌ منصفٌ لا نعاتبه

والأبيات من رائع ما قاله مادح في التشوق إلى ممدوح ، إنهـا فوق « الرسميات » ـ كما نقول اليوم وهي تدل ، فيما تدل عليــــه ، على نفس الخريمي بين الإباء والسماح ، وعلى شخص الحسن بين التواضع والوداد (٢) .

ولما مات الرشيد (في جمادى الاخرى من السنة نفسها) وولي الخلافة ابنه الأمين عزل الحسن بن التختاخ « فسار متوجهاً في طريق الحجاز ، لفساد طريق الشام ، وذلك يوم السبت لثمان بقين من ربيع الأول سنة

(١) الجهشياري ١٩٤ .

(٢) أورد القصيدة الحصري ٢ : ١٠٧٢ وينظر ابن قتيبة ٢ : ٧٣٤ ـ ٧٣٥ ، العسكري ـ ديوان ١ : ٢٧٩ .

أربع وتسعين ومئة ... فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وشهراً وثمانية وعشرين يوماً »(١) .

ثم مات فرثاه الخريمي(٢) .

ولم تكن كل صلات الخريمي ببغداد صلات ود ومدح ، فقد يهجو ، وحسبك أنه هجا أبا دُلَف(٣) وأنه أغرى بعلي بن الهيثم الأنباري الكاتب(٤) .

أما علاقاته الأدبية فلا بد من أنها كانت واسعة ، وكانت علاقة الجاحظ به علاقة إعجاب وما يدل على ملازمة ما ، ومثلها علاقة أحمد بن عبيد بن ناصح المعروف بأبي عصيدة(٥) .

---

(١) مصدرنا الأول عن ولاية ابن التختاخ على مصر : الكندي ١٧٢ ـ ١٧٣ ، وينظر المقريزي ـ القسم الثالث ١٢٦ ، ابن تغري بردي ٢ : ١٤١ .
وقد وردت التختاخ لدى الجاحظ - البيان ١ : ٢٠٩ ، ابن الجراح ١٠٣ ، الكندي ١٧٢ ـ ١٧٣ ، المقريزي ق ٢ : ١٢٦ (وزاد انه التختاخ بن التختكان) أما الجهشياري ١٩٤ ، وابن تغري بردي ٢ : ١٩٣ فقد وردت لديهما على «البحباح» وقد اقرها الحاجري ٣٦٣ كأنه يعتمد الجهشياري وفي الخبر الذي أورده الجهشياري ١٩٦ خلط واضطراب فهو يقول : ان الحسن « كان قد خدم المهدي وموسى وتقلد أيام موسى مصر ، وخدم بعده الرشيد ، وفارق عند توسط أيام البرامكة السلطان وتخلى عن الدنيا وجاور بمكة ، فكتب اليه أبو يعقوب قصيدته الطويلة التي يقول فيها :
ألا بكرت لُبنى عليه تعاتبُـــهُ تُحدّثهُ طوراً وطوراً تلاعبـــه
وأكبّ على سماع الحديث » ـ وينظر الحاجري ٣٦٤ وقد اختار أن الخريمي بعث بها الى الحسن حين تقلد مصر في أيام موسى الهادي .

(٢) ابن الجراح ١٠٣ ـ ولم يصل الينا الرثاء . وينظر الجاحظ ١ : ٢٠٩ .

(٣) الجاحظ ـ البيان ٢ : ٣٥٦ ـ ٣٥٧ (ثلاثة أبيات) وأبو دلف هو القاسم بن عيسى بن معقل بن ادريس العجلي ، كان أميراً سيد قومه وقائداً شجاعا ـ ينظر الطبري ، ابن النديم ، ابن المعتز ..

(٤) ابن الجراح ١٠٥ ، ياقوت ـ معجم الأدباء ترجمة علي بن الهيثم ١٥ : ١٤٠ .

(٥) ابن بلنجر ، نحوي كوفي ديلمي الأصل من موالي بني هاشم ادّب ولد المتوكل وهو من رواة أصحاب الأشعار ، ومن مصنفاته « عيون الأخبار والأشعار » ، مات سنة ٢٧٨ (وقيل ٢٧٣) ، ينظر عنه اللغوي ٩٧ ، ابن النديم ٧٣ ، البغدادي ٤ : ٢٥٨ ـ ٢٦٨ ، القفطي ١ : ٨٤ ، ياقوت ٣ : ٢٢٨ ـ ٢٣٢ .

وورد له خبر عن مجلس فيه حماد عجرد وحماد الراوية (١) . وليس من المعقول أن نقول إنه نشأ في مجلسها كما فعل الأستاذ طه الحاجري إذ قال : « قد نشأ الخريمي في مجلس حمّاد الراوية وحمّاد عجرد . واتصل في أول نشأته بهذه الجماعة من الشعراء التي كانت تضم مطيع بن إياس ويحي بن زياد . ولعل هذه الصلة كان لها أثرهـا في الوجهة الشعرية التي توجهها » (٢) ، والدكتور محمد نبيه حجاب إذ قال : « إنه ، كما أشار أبو الفرج ، نشأ في مجلس حماد . . . » (٣) ؛ فقد بعد عهد الخريمي بالنشأة الأولى ، ولم نجـــد أن أبا الفرج الأصبهاني أشار إليها ، كما لم نجد في وجهة شعره ما يدل على تأثر لصلته بحماد وزمرته . لقد كان الخريمي « ظريفاً » ولكنه كان يتأله ، وينشد في شعره الفخامة والسمو والبعد عن أغراض المجون وكان يودّع الكهولة ، ويؤلمه الظلم وتؤذيه عوامل العبث . واتضح ذلك جلياً في أساه لما أصاب بغداد أيام الفتنة بين الأمين والمأمون .

(٤)

جعل الرشيد ولاية عهده في أولاده الثلاثة (٤) : محمد الأمين ثم عبد الله المأمون ثم القاسم المؤتمن ، وكتب بذلك وأشهد الشهود ، فلما توفي سنة ١٩٣ ، وآلت الخلافة إلى الأمين بدأ يعمل على خلع أخويه ونقل الولاية بعده إلى ابنه الطفل ، وقد فعل وسماه « الناطق بالحق » فكان ذلك بدءً لسلسلة

(١) الأصبهاني ٥ : ١٦١ وينظر ١٠ : ١٢٠ ، ١٥ : ١٠٤ ، ٢١ : ١٥٧ .
(٢) الحاجري ٣٦٣ في « تعليقات وشروح » ذيل بها تحقيقه كتاب البخلاء للجاحظ .
(٣) حجاب ٣٠٥ .
(٤) فصل الطبري أمر هذه الولاية وما تبعها من أحداث ، وهو مصدرنا الأساس في هذا التلخيص ينظر في أول أحداث سنة ١٧٦ III ٦١٠ .

من الفتن والحروب كانت الغلبة في جملتها للمأمون. وقد نال الناسَ من جراء ذلك عنت شديد وذهب منهم ضحيته خلق كثير.

وانصبّ الشر بخاصة على بغداد إذ سارت إليها جيوش المأمون فذعر أهلها واضطربت أمورهم واختل نظامهم وعبث بهم العابثون و «ثقب أهل السجونِ السجونَ وخرجوا وفتّن الناس ووثب على أهل الصلاح الدّعار والشّطّار فعزّ الفاجر وذل المؤمن واختل الصالح وساءت حال الناس... حتى... خربت الديار».

فلما دخلت سنة سبع وتسعين ومائة.. حاصر طاهر بن الحسين وهرثمة ابن أعين وزهير بن المسيَّب محمدَ الأمين فنُصبت المجانيق والعرّادات، واحتُفرت الخنادق، ورُميت المحال بالنفط والنيران، واستَشرى القتال، فثقل الحصار على الأمين، وقد فرّ من أصحابه مَن فر، واستأمن منهم إلى طاهر من استأمن، وتفرق من تفرق، ولم يبق معه إلاّ قلة يطمع أكثرهم بما بقي لدى الخليفة من مال، وهم في الغالب ليسوا أهل رأي قدر ما هم أهل سلب وحب للقتال، من «باعة الطريق والعراة وأهل السجون والأوباش والرعاع والطرّازين وأهل السوق، وكان حاتم بن الصقر قد أباحهم النهب وخرج الهِرش والأفارقه فكان طاهر يقاتلهم لا يفتر عن ذلك ولا يمله ولا يني فيه». وهكذا عمّ الفساد وذهبت معالم بغداد وذوت نضارتها واضمحل جانب العيش فيها.

سُميت تلك فتنة، وهي كذلك وأكثر من ذلك، إنها كارثة حلّت بعاصمة الحضارة والمدنية فقال الخريمي قصيدة طويلة تقع في خمسة وثلاثين ومائة بيت، وصف ماآلت إليه بغداد تحت وطأة الفتنة العارمة (سنة ١٩٧) مطلعها:

قالوا ولم يلعبِ الزمانُ ببغ　　　داد وتَعْثُرْ بها عواثِرُها

ومنهـا :

جنةُ دنيـا ودارُ مَغْبطةٍ　　قل من النائبات وائرهـــا

* * *

أورد أملاكُنـــا نفوسَهُمُ　　هُوَّةَ غيٍّ أعيَتْ مصادرها
ما ضرَّها لو وَفَتْ بموثِقِها　　واستحلَمت التُّقى بصائرها
ولم تسافك دماءَ شيعتِهـــا　　وتَبْتَمِلْ فِتيةً تكابرُهـا
وأقنعتها الدُّنيا التي جُمِعَتْ　　لها ـ ورَغبُ النفوس ضائرها

* * *

يا هل رأيتَ الجنانَ زاهرةً　　يَروقُ عينَ البصير زاهرُها

* * *

فإنهـا أصبحت خلايا من الـ　　إنسان قد دَميت محاجرُها
قفراً خلاءً تعوي الكلابُ بها　　يُنكِرُ منها الرُّسومَ دائرُها
وأصبح البؤسُ ما يفارقهـا　　إلفاً لها والسرور هاجرها

* * *

يا بؤسَ بغدادَ دار مملكة　　دارت على أهلها دوائرهـا
أمهلهـا الله ثم عاقبهـــا　　لما أحاطت بهـا كبائرُهـا
بالخسف والقَذْف والحريق والـ　　حرب التي أصبحت تساورها

* * *

حلَّت ببغداد وهي آمنةٌ　　داهيةٌ لم تكن تحاذرهـــا
طالعهـا السوءُ من مطالعه　　وأدركت أهلها جرائرُهـا

* * *

من يرَ بغداد والجنودُ بها　　قد ربَّقَتْ حولَها عساكرها

* * *

يعلمُ أن الأقدارَ واقعــةٌ وفقاً على ما أحبَّ قادرهـا
فتلك بغدادُ ما يُبنى من الـــدّ له في دورها عصافيرها
محفوفةٌ بالردى مُنَطّفةٌ بالصُّغر محصورةٌ جبابرهـا

. . .

والكرخ أسواقُهـا معطّلةٌ يستنُّ عيّارهـا وعائرها
أخرجتِ الحرب من سواقطها آساد غيل غُلباً تساورها
من البواري تراسُها ومن الـ خوص إذا استلأمت مغافرها
تغدو إلى الحرب في جواشنها الـ صّوف إذا ما عُدَّت أساورها
كتائب الهرش تحت رايته ساعد طرّرها مقامرها
لا الرزقَ تبغي ولا العطاءَ ولا يَحْشُرها للقاء حاشرها

. . .

وهل رأيتَ الفتيان في عَرْصة الـ معرك معفورةً مناخرها
كل فتى منّـــاعٌ حقيقتَه تشقى به في الوغا مساعرها
باتت عليه الكلاب تنهشُه مخضوبةً من دم أظافرها
أما رأيت الخيولَ جائلةً بالقوم منكوبةً دوائرهـــا
تعثُرُ بالأوجه الحِسان من الـ قتلى وغُلّت دماً أشاعرها
يطأن أكبادَ فتيةٍ نُجُدٍ يَفْلِقُ هاماتِهم حوافرها
أما رأيت النساء تحت المجا نيق تعادي شُعْثاً ضفائرها
عقائلَ القوم والعجائزَ والـ عُنّسَ لم تخبر معاصرهـا
يحملن قوتاً من الطحين على الـ أكتافِ معصوبةً معاجرها
وذات عيش ضنك ومُقْعِسة تشدَخُها صخرةٌ تعاورها(١)

---

(١) ومُقعسة : في نسخة مقعصة .

تسأل عن أهلها وقد سُلبت — وابتُز عن رأسها غفائرها

يا ليت ما والدهرُ ذو دُوَلٍ — يُرجى وأخرى تُخشى بوادرها

هل ترجِعَنّ أرضُنا كما غنيت — وقد تناهت بنا مصايرهـــا ...

ولهذه القصيدة أكثر من أهمية ، فهي تصور ما حل ببغداد تصويراً يقنعك بأنه الذي وقع ، وأن الشاعر لم يكن أكثر من امرىء سجل ما حدث دون تزيد ، ودون أن تشغله الكليات عن جزئيات الأسماء والوقائع والفئات ، ومن أدلة قيمتها التأريخية أن الطبري نقلها كاملة ، وهو الرجل الذي تهمه الروايات فعدها رواية ، ورواية صادقة(١) .

سجل الأحداث رجل يعرف بغداد تمام المعرفة ، في خيرها وشرها ، وفي نعيمها وبؤسها ، فكانت ـ بذلك ـ أبياته التي تصور حياة الترف وثيقة أخرى لمـا كانت عليه بغداد (قبل الفتنة) . وقد دعاه إلى تسجيل هذا الجانب عامل المقـابلة بين ما يرى ورأى ، وعامل في يُظهر الفرق الهائل بين ما هو كائن وما كان ، فيتضح أثر الفتنة ويبدو سوؤها ولا بد من أن يكون هذا العامل قائماً في نفس الشاعر .

ولم يكن أبو يعقوب من دعاة الفتنة ، ولم يكن راضياً عما حل ببغداد وبأهل بغداد ، وإنما كان ساخطاً متألماً متحسراً ثائرا ، وموقفه موقف الرجل العاقل الحكيم المجرب الذي يتأمل الأسباب والنتائج ويلتزم جانب المنطق فيزيده ذلك تألماً لآلام الآخرين ، وتقض مضجعه أعمال الطيش والاعتداء ، موقف الرجل الخيّر الذي لا يرتضي الشر يعم النـاس ، ولا يرضى الفتنة

(١) أما ابن الأثير ٥ : ١٥٩ فقال : وقال الخريمي قصيدة طويلة نحو مائة وخمسين بيتاً أتي فيها على جميع الحوادث ببغداد في هذه الحرب ـ تركتها لطولها » . وقد ورد الخريمي لديه على : الجرمي . وهو تصحيف . وينظر ابن كـثير ١٠ : ٢٣٩ .

أن تقع . وإذا قامت فتنة فإنها لا تعرف جائراً ومهتدياً ولا تميز مخطئاً من بريء ، ولا يسود فيها إلا الأشرار من كل صنف .

ولا أدل على عقله من أنه عرض مظاهر الأسى في الفتنة على وجه يكرهها ويبشعها ، وأنه لم يشتف بجهة من الجهات ولم يجعل وكده شتماً أو سباً . ومع أنه كان أقرب إلى المأمون وكان يرى الحق إلى جانبه فان الذي شغله ، أكثر ما شغله ، وكل ما شغله ، مظاهر الفتنة وما سببت من خراب ودمار وجوع وما أشاعت من أذى وظلم واعتداء .

لقد كان « إنسانياً » في قصيدته ، وإذ صوّر فتنة بعينها فلقصيدته قوة تبشع بها كل فتنة ، وتدعو عقلاء القوم إلى الحذر من الفتن والعمل على تجنب وقوعها .

ولم يكن الخريمي سيء القصد أو سيء النية ولم يقصد إلى أن يتملق حاكماً أو أن يحصل بشعره مالاً أو جاهاً وإنما سجل ما أحس وأرخ ما علم هادفاً إلى صالح عام . إنه شاعر ناصح غيور ، وكان الموقف أكبر من التفكير بعرض الدنيا وأكبر من الانتهاز ، وأكبر من الأمين والمأمون ، وأكبر من أن يستغله شريف لمآربه الخاصة وحاجاته القريبة .

إنه إذ ذكر المأمون ذكره عابرا ، وإذ ذكر وزيره ذا الرياستين (الفضل بن سهل) رجاه أن يسود العقل ودعاه إلى إحقاق الحق ، وألاّ يأخذ البريء بالمذنب ، وأن يتولى العامة برعايته وعفوه . إنها نصيحة جليلة . ثم إنه لم يتقدم بقصيدته إلى القادة الفاتحين .

ولا تقل الأهمية الشعرية للقصيدة عن الأهمية التأريخية ، فقد جمعت مزايا جمة تحلها محلاً مرموقاً وترتفع بها عن مستوى التعليم والتقرير والوعظ الرخيص ؛ ودلّت على أن صاحبها من كبار شعراء العربية وأن رائيته جديرة أن تنال حقها من العناية فتحسب في عداد مختارات العصر، فكم لنا مثلها !

القصيدة طويلة ولكنها لم تفقد توازنها بين المبدأ والمنتهى ، ولم يجن الطول فيها على النفس ، وإنما بقيت شعراً ، وإلاّ فلا يكفي الطول وحده في بلاغة الأشياء .

واستعان الشاعر ـ بقصد وبغير قصد ـ بعرق من النثر في الأسلوب ، فجعل قصيدته أقرب إلى السرد والقصص ، وجعل عبارته أقرب إلى عبارة الكاتب المتحدث مما أعانه على التفصيل وعلى الربط بين الأجزاء وعلى تشعيب الكلام وتفنينه ؛ ولكنه ، على الرغم من ذلك ، وعلى الرغم من البحر المنسرح الذي نظم عليه ، لم يخرج عن العرق الشعري ، أي أن كلامه لم يستحل نثراً يؤول بالشعر إلى الجفاف والهلهلة ، ويودي بالموسيقى والخيال .

إن الذي أدار دفة القصيدة أستاذ متمكن ، عارف بأسرار اللغة وأسرار التراكيب ، وقد جرّب طويلاً في البنـاء . وإنه لم يقل الشعر لكي يقال إنه شاعر ، ولم يُطل لكي يقال إنه طويل النفس ، وإنما قال لأنه متأثر متألم متأجج العاطفة في حزنه وأساه ، عميق الحسرة ، شديد « الغيرة » ، وقد ترك عاطفته حرّة في الإبانة والظهور وسار معها أنّى سارت حتى إذا قاربت أن تهدأ هدأ ووقف . وقد كانت عوامل الألم في النفس الإنسانية مبثوثة في كل مكان لا تكلف المرء في البحث عنها ، وكانت مظاهر الفتنة عديدة ومتنوعة ومتجددة فإذا استدعت مقابلة عما كان قبلها من نعيم ازدادت تعدداً وكان حديث الشاعر عنها متنوعاً داخل الإطار العام مما يزيد القارىء شداً إلى القصيدة وتأثراً بها وانسياقاً معها .

إنها جديرة أن تعد في المعلقات ، لو كنا في عصر المعلقات . ترى أين كان كبار شعراء العصر العباسي عن أمثالها !

(٥)

كان الرجل يطيل التأمل في الناس ويميل إلى التبصر في أمور الدنيا والتفكير بالآخرة ؛ وفي الأحداث العامة ما يبعث النفس على ذلك ؛ ويكفي أنه شهد الفتنة ، فاذا جدّت أحداث خاصة ازدادت النفس رقة ومالت عما يشغل الناس به كيانهم من طمع .

ومن أحداث الخريمي الخاصة في هذه المرحلة من العمر ، هذه الشيخوخة التي ألقت بكلكلها عليه ، وهذا الموت الذي نزل بأخيه :

أقول لعيني إن يكن ملّ مُسعدي فأيتها العينُ السخينة أسعدِي

. . .

نظرت إليه فوق أعواد نعشه بطروفة حيرى تجور وتهتدي(١)

ثم نزل بابنه :

ألا كلُّ عيش بعد فرقة أحمد وكلُّ سرور ـ ما بقيت ـ ذميم(٢)

وكان فقده عينه الثانية من أقسى ما ألمّ به وأشعره بالعجز ، فأكثر من النظم في رثائها وسار شعره في ذلك واشتهر ، ومنه قوله :

---

(١) روى ابن عساكر ٢ : ٤٢٧ سبعة أبيات ف رثاء أخيه .

(٢) تقع المرثية في ٢٣ بيتاً أثبتها ابن عساكر ٢ : ٤٣٦ ـ ٧ برواية ابن أبي الدنيا ، وهو أبو بكر عبيد الله بن محمد بن عبيد وكان قرشياً في ولاء ، وكان يؤدب المكتفي ، وكان ورعاً زاهداً ، عالماً بالأخبار والروايات توفي يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة من سنة ٢٨١ وقيل ٢٨٢ ينظر الكتبي (محمد بن شاكر) ـ فوات الوفيات الخ . محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، (مطبعة السعادة) ١٩٥١ ح ١ : ٤٩٤ ـ ٤٩٥ ، ابن كثير ١١ : ٧١ س ٢٨١ .

أصغي إلى قائدي ليُخبِرَني إذا التقينا عمّن يحييني
أريد أن أعدِل السلام وأنْ أفصِلَ بين الشريفِ والدّونِ
أسمع ما لا أرى فأكره أنْ أخطِيء ، والسمعُ غيرُ مأمون
لله عيني التي فُجِعتُ بها لو أنّ دهراً بها يواتيني
لوكنتُ خُيِّرتُ ، ماأخذتُ بها تعميرَ « نوح » في ملك «قارون»
حقَّ أخلاّئي أن يعودوني وأن يُعَزّوا عنّي ويبكوني(١)

إنه مكروب دون شك ، ولكنه في مستوى اجتماعي حسن يدل على مال وجاه وعز . وعرض نفسه على الطبيب تلو الطبيب ، وهم يعِدونه خيراً ، حتى يئس منهم وبدا يستشعر النهاية :

إذا ما مات بعضُك فابك بعضاً فان البعض من بعضٍ قريبُ(٢)

---

(١) الجاحظ ـ الحيوان ٣ : ١١٣ ؛ ابن قتيبة ٢ : ٧٣٣ ، عيون ٤ : ٥٧ ؛ ابن الجراح ١٠٤ ، الصفدي ٧١ (أورد الصفدي الأبيات في مقدمة كتابه « نكت الهميان في نكت العميان » ولم ترد للخريمي ترجمة فيه ، ولا في كتابه الثاني « الشعور بالعور » ، مخطوط في مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة برقم ١٢٨ من قسم كتب التاريخ ـ وقد استعنت على مراجعته بأحد المدنيين) .

(٢) ابن قتيبة ٢ : ٧٣٣ ، ابن الجراح ١٠٤ ، الأصبهاني ١٥ : ١٠٤ ـ ١٠٥ (أخبار أبي الشيص) ، العباسي ١ : ٢٥٣ .

وتنظر أبيات أخرى قالها في فقده عينه لدى ابن قتيبة ٢ : ٧٢٢ ، ٤ : ٥٧ ؛ الصفدي ٧٢ ، العباسي ١ : ٢٥٢ ، وينظر المقابلة الجاحظ ـ الحيوان ٣ : ١١٣ ـ ١١٤ .

كان يشعر ضيقاً شديداً ويحس بغربة خانقة ، مع أن الناس باقون على احترامهم إياه ووفائهم له ؛ ولكنها الحالة النفسية التي يعانيها :

كفى حَزَناً أن لا أزور أحبَّتي من القُرْبِ إلا بالتكلُّف والجهدِ
وإني إذا حييت ناجيتُ قائدي ليعدِلني قبلَ الإجابة في الردِّ
إذا ما أفاضوا في الحديث تقاصرتْ بيَ النفسُ حتى ما أحير وما أبدي
كأني غريب بينهم لستُ منهمُ وإن لم يحولوا عن وفاءٍ ولا عهدِ
أقاسي خطوباً لا يقوم بثِقْلها من الناس إلا كلُّ ذي مِرَّة جَلْدِ[1]

ونحن نعلم أن الخريمي « عمي . . في آخر عمره »[2] و « بعد ما أسنّ »[3] ، ولكننا لا نملك من المصادر ما يعيّن سني العمر أو تاريخ الوفاة أو مكانها ، ولعله توفي ببغداد بعد أن نيَّف على الثمانين[4] .

وقد ذكر أحد المؤلفين المعاصرين لنا أن الخريمي مات سنة ٨١٥ – ٨١٦ للميلاد[5] أي ما يمكن أن يساوي عام الـ ٢٠٠ للهجرة ؛ وقال آخر إنه توفي سنة ٢١٤ للهجرة[6] ، ولم يدُلا على مصدرها .

---

(١) الجاحظ – الحيوان ٧ : ١٥١ – ١٥٢ . وقد وردت فيه وإن لم يحولوا ، على : فان لم يحولوا .
(٢) ابن الجراح ١٠٤ .
(٣) ابن قتيبة ٢ : ٧٣٢ .
(٤) وقد يعني التعمير العيش أكثر من المئة – ينظر السجستاني – المعمّرون .
(٥) برون ١ . ٢٦٨ .
(٦) محقق كتاب ابن المعتز ٥١٧ .

ويمكن القول إن الخريمي عاش أكثر من ذلك .

وتبقى المسألة خاضعة للنقاش ؛ ويبدو أن خبر وفاة أبي يعقوب فقد مبكراً (١) . كما لم نعلم عن أعقاب الشاعر شيئاً (٢) .

(يتبع) الرياض — جامعة الرياض الدكتور علي جواد الطاهر

(١) فلم يعن به مصدر من هذه المصادر الكثيرة التي تسير في نظامها على السنوات ، وفي مقدمتها الطبري الذي لا يجهل الخريمي . ولعل عمى الخريمي وشعوره العميق بالعجز دفعاه إلى أن يعتزل الناس ويموت منسياً أو شبه منسي .

(٢) وقد يكون أعقب مالاً وما إليه ، لكننا نجهل كل شيء عن أولاده بعده ، وعمن يكونه « يعقوب » .